دورالمخابر في إبراز وحماية التراث الأثري

نقيشات قلعة تاوقريت

أ .عصماني العمري

جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة

المقدمة

تلعب المخابر دورا هاما وفعالا في إبراز الموروث الثقافي سواء المادي أو الغير المادي، واخص بالذكر مخبر علم الآثار و التراث و علوم القياس الذي أعطى لنا فرصة كبيرة من أجل إبراز الموروث المادي لمنطقة تاوقريت، وبفضله تم الاحتكاك مع السكان والجمعيات الفاعلة في المنطقة وحثهم على الحفاظ على هذه الذاكرة التاريخية المتمثلة في الأنصاب،علاوة على تربص الطلبة من عدة جامعات الوطن وبفضل المخبر تمكنا من توثيق جميع المعثورات رفعا ورسما.

إن منطقة تاوقريت بولاية الشلف تزخر بالتراث الثقافي المادي الذي يرجع إلى مختلف الحقب التاريخية الخاصة، مثل ما تعلق بالعمارة والطقوس الجنائزية والمتمثلة في البازينات والأضرحة، مما يستوحي بأن المجتمعات القديمة صاحبة هذه المعالم كانت تعيش على شكل عشائر تحكمها طقوس وتنظيمات محكمة وصارمة، وكانت تكن إحتراما بالغا للأموات[1].

وعلى الرغم كون الشواهد تعتبر وسيلة ومصدرا أصليا بصعب الطعن فيه، فهو يفيد في تسجيل وتدوين بعض المعلومات التاريخية وتصحيح ما وقع فيه المؤرخون سهوا أو عمدا ضمن ما دونوه من معلومات عن مجتمعات كانت لها طقوسها الخاصة.وهذا من خلال الكثير من الشواهد التي أعدت بدقة من الناحية المعمارية وطريقة الصقل والنحت والكتابة، مما جعلها تحتل مكانة مرموقة في مختلف المتاحف لجمال نقشها وعظمة مدلولها التاريخي والأثري. وهذه الشواهد تقدم للدارسات التاريخية والأثرية والإجتماعية و الدينية الكثير من المعلومات التي تساعد على فهم الأوضاع الاجتماعية والدينيةوالطقوس التي كانت تقام في تلك الفترة، كما أنها تعد مجالا خصبا لتتبع التطورالتي سارت عليه الكتابة وأنواعالخطوط وطرق الحفر والنحت وطريقة توزيع الحروف في السجل وتناسقها.

عرف إنسان شمال إفريقيا مراحل تطور فكرة الدين بنفس الخطى التي مر بها الإنسان بصفة عامة انطلاقا من الاعتقاد بوجود القوة الخفية المتحكمة في مصيره، ورأى أن الظواهر الدينية خليط بين السحر

[1] محمد البشير شنيتي : نظرة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، مجلة الدراسات التاريخية العدد الأول 1986، ص14.

والدين واعتقد أن كون الطبيعة مليئة بالأرواح[2]،ومن أقدم النصوص الأدبية التي تشير إلى العبادة في المغرب ما ذكره المؤرخ هيرودوت(Hérodote) في شهادته أن الليبيين كانوا يسكنون حول "ترتيونيس"، وكانوا يعتقدون في الربة أثينا وذلك بقوله "غير أن القاطنين منهم عند البحيرة الترتيونية يقربون لأثينا خاصة ثم من بعده "التريتون" و"بوسيدون"[3].وانطلاقا من المصادر القديمة خاصة ما ذكره هيرودوت، فإن فكرة وجود أرباب محلية أولية كانت موجودة لدى سكان المغرب القديم، بل نجد "ديودور الصقلي" يشير أن الأرباب ولدت في بلاد المغرب القديم وهذا الرأي يؤكده الشاعر الإغريقي "هوميروس"، وهذا يدل أن سكان بلاد المغرب عرفوا العبادات منذ أزمنة بعيدة وتأثروا كغيرهم من الشعوب بالمظاهر الطبيعية التي تجاوزت تفكيرهم[4].

تعد ظاهرة الاستجداء بالقوى الطبيعية متأصلة في سكان بلاد المغرب القديم، وتتجلى في كثرة الطقوس المصاحبة لمراسيم الدفن ولعمليات الحرث والبذر والحصاد والدرس، ويرى ستيفان غزال(Stéphane Gsell)بأن الدارسات التي قام بها كل من "دوتى"(Doté)و" مرسي"(Mercier) و"بل"(Bel)و"دستانج"(Destrng)و"برسن"(Brisson)و"هنريباسي"(HBassét)و"لوست"(Laust)وغيرهم، هي كلها جهود أولية في البحث في ديانات المغرب القديم و التي لاتزال تحتاج إلى الكثير من الأبحاث في الطقوس والديانات، ولم يتم الكشف عن الآثار سكانها القدماء إلا القليل مما يوحي بأن المعلومات المتعلقة بالمعتقد الديني شبه منعدمة، ولا يمكن التعرف عليها إلا من خلال أساليب الدفن و الرسوم والنقوش الصامتة والمدافن.المعتقدات في منطقة المغرب القديم فيها ندرة للشواهد التاريخية خلال تلك الفترة، وما بقي منها كان عرضة للظروف المناخية والبيئية التي لم تبق منها إلا القليل، وما بقي طمسه وأتلفه الإنسان بقصد أو دون ذلك، ضف إلى أن هذه النقوش الصامتة لاتحتوي على كتابات مما صعب علينا فك رموزها، "بول روبار" هو الاسم السابق لبلدية تاوقريت أثناء الفترة الاستعمارية.

"بول روبار" هو إبن معمر فرنسي كان رئيس بلدية أورليان فيل الشلف حاليا، حيث ولد بها عام 1910 إذ بعدما أتم دراسته بجامعة الجزائر في كلية الآداب، تمكن من تأليف قاموس اللغةالفرنسية الشهير "لوبوتيروبار"(PETIT ROBERT)،وأسست منطقة "بول روبار" عام 1911 لتصبح رسميا بلدية عام 1956 تابعة إلى إقليم عمالة"أورليان فيل"[5].

"تاوقريت" معروفة بآثارها الرومانية، على غرار القلعة المتواجدة بقرية سيدي عيسى، على بُعد 5 كم من مقر البلدية. رُقيّت تاوقريت إلى مصاف الدوائر عام 1991، منفصلةً عن دائرة بوقادير. يوجد ببلدية تاوقريت تجَمُعَيْنِ سكَنِيَيْنِ كبيرين إضافة إلى مقر البلدية، ألا وهما: سيدي عيسى والشعابنية. ضف إلى

---

[2]هيرودوت،في نصوص ليبية ترجمة على فهمي خشيم مصراتة ليبيا 1967 ص 67

[3]مصطفى الاغشى، جذوربعض مظاهر الحضارة الامازيغية خلال عصورماقبل التاريخ الرباط، 2002 ، ص32

[4]نفسه، ص33.

[5]أرشيف بلدية تاوقريت .

ذلك، هناك العديد من القرى والمداشرعلى غرار: المخالفية، الميزاب تيطاوين، جبانة أولاد سيدي هني.....

موقع بلدية تاوقريت :

حالةالموقع :

يتربع الموقع الأثري بمنطقة الضهرة على مجموعة من المعالم الأثرية غير بارزة المعالم على مساحة تقدر بـــ 30هكتار، توجد في منطقة جبلية ضيقة يصعب الولوج إليها من الجهة الشمالية والجهة الجنوبية وحتى من الناحية الغربية نوعا ما.بها سورين تقريبامتوازيين، السور الأول يتراوح سمكه 350، وقد بنيت على طوله مجموعة من الأبراج المستطيلةالشكل،أما السور الثاني يبلغ سمكه 2م والذي يفصله عن الأول 200 متر واجهاته من الحجارة الكبيرة .

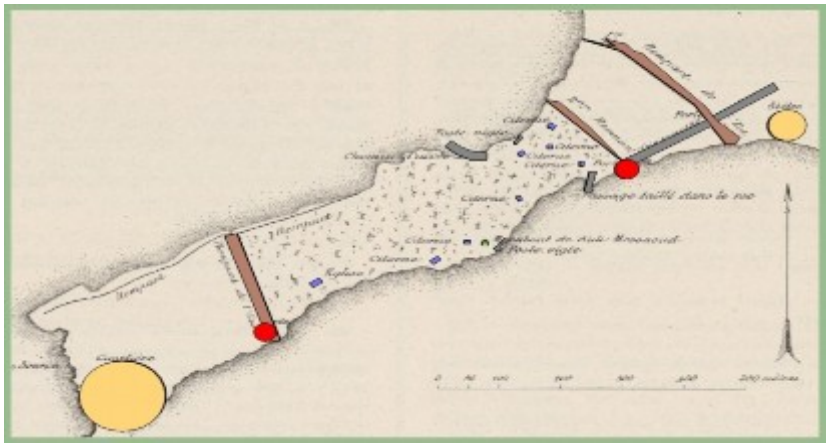

قلعة تاوقريت مع بعض التصرف

كما تم تحديد مجموعة من الخزانات المائية أكثر من 06 خزانات[6]، تختلف فيما بينها منها ما نحت في الصخر وتختلف في الشكل والسعة وهناك من هي منحوتة في الصخر عموديا على شكل قبو.

[6] التقرير النهائيلمخبرحولالتربصالميدانيبقلعةأولادعبداللهمنطرفمخبرعلمالآثاروالتراثوعلومالقياس

واحد من بين الخزانات الستة المتواجدة بالقلعة

الطريق الجنوبي حفر في الصخر

الفخاريات المعثورعليها فوق سطح القلعة ترجع إلى العديد من الورشات المختلفة وإلى فترات تاريخية مختلفة أهمها الفخار*(céramique campanienne)* الذي يرجع من القرن الرابع إلى القرن الأول قبل الميلاد ثم الفخار السجيلي المعروف الذي يؤرخ للقرن الأول كما تم العثور على مجموعة من الفخاريات مما يؤكد التبادل التجاري مع مجموعة التي تقطن الضفة الشمالية للبحر المتوسط. كما وجدت كنيسة مسيحية[7] وتم التنقيب عنها من طرف غبريالاكامبس(Gabrielle CAMPES) وجونماريون(J_MARION) سنة 1948م، طولها 14م وعرضها 10م تتكون من أربعة أورقة والاتجاه نحو الشمال الشرقي

بعض بقايا أعمدة الكنيسة

مركز الحراسة

يتكون من أربع أجزاء منهاالسلم وغرفة مربعة تطل على نافذة مستطيلة الشكل منها تطل على السهول التي تحيط بالقلعة نحت في الصخر[8]

مناظر لمركز الحراسة

[7] Revue Africaine volume 94 . 3 et 4 Trimestre 1950.J. Marion les agglomérations antiques des environs de Paul robert P209 _258

[8]Colonel Mercier. Note sur les ruines et les voies antiques de l'Algérie B.A.C1888 P98_99

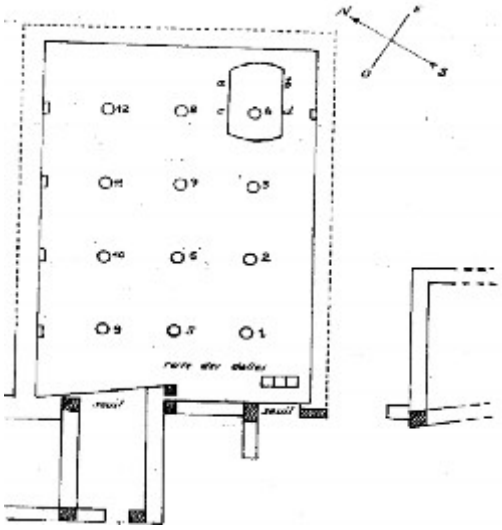

مخطط الكنيسة مأخوذ من المجلة الإفريقية 1950 العدد رقم 94

بالإضافة إلى مجموعة من المباني المنتشرة في ربوع القلعة منها المبهمة ومنها التي تظهر أسسها تحتاج إلى حفرية من أجل إبرازها.

بعض المباني في القلعة

تعريف الأنصاب

وهو عبارة عن حجارة منحوتة وموضوعة في الاتجاه الأفقي و تكون على هيئة معمارية مثل وجود باب أو واجهة أعمدة وفي جهتها قمة مثلثة أو نصف دائرية تحتوي على أشكال رمزية[9] أو كتابات أو رموز أو أشكال هندسية. وتنقسم الى نوعين أنصاب جنائزية وأنصاب نذريه ‘الأنصاب الجنائزية هي أنصاب تخليدية توضع أمام قبر المتوفى وتحتوي في أغلب الأحيان على إطار مخصص للكتابة ,بحيث يذكر اسمه وعمره والمهنة التي كان يمارسها بالإضافة إلى الأمور الحياتية .....هذه الأنصاب تحتوي على عناصر معمارية وجبهة مثلثة وشبه دائرية أو مقوسة ,كما تحتوي على رموز فلكية و تشخيصات أدمية[1].وتعد الأنصاب وسيلة أساسية لتأريخ من خلال تطور أنماطها من حيث الصناعة والتحكم في

[9]Le sanctuaire punique Del_Hofra A Constantine.par ANDRE BERTHIER et L ABBE RENE CHARLIER 1955 Paris.p 11.

مقاساتها وكذلك مواقع اكتشافها ‘كما انها وثيقة جد مهمة لتحديد معطيات جديدة بسيطة أو راقية لمعرفة الحيلة الاجتماعية والحياة الاقتصادية ‘والجانب الثقافي والفني لذلك لتلك الفترات ضف غلى ذلك معرفة الرموز والطقوس الدينية التي كانت سائدة في تلك الفترة والإطار الجغرافي لتواجد هذه النصب المتمثلة في 117 ناقشة ولكي يتم الاستفادة منها قمنا بدراسة تحليلية لهذه الشواهد الأثرية .

أنصاب تاوقريت القلعة

أماكن تواجد النصب والطقوس الدينية

يستغرب (جيمس فيفري) الذي يرى أنه لم يسبق في شمال إفريقيا انتشار عبادة خارجية بنفس السهولة التي انتشرت بهاعبادة بعل حمون وما دفعه إلى الاعتقاد بوجود جذور محلية لها، أما هنري باسي فقد تساءل حول المعتقدات في شمال إفريقيا ما إذ كان لها مفعول في المعتقدات الليبية أم لا؟ لكنه يخلص مع ستيفان قزال إلا أنه لحد الآن لاشيء مؤكد بإعطاء رأي نهائي ويقول (هنري باسي) أن الليبيين لهم استعداد للتقبل ,ولو سطحيا لما هو أت من الخارج[10].

إن قرب التجمعات السكانية من القلعة جعلهم يتسابقون من أجل جلب الحجارة التي استعملت في الحضارات السابقة وحسببعض الأعيان المنطقة والشيوخ أن منطقة الناقشات كانت تسمى بالصفيح لان هذه الصفائح تستعمل في غطاء قبر المتوفى نظرا لحرمان الذي كان السكان يعيشونه أثناء الفترة الاستعمارية.

لذا تعرض في العديد من الأماكن إلى عملية قلع الحجارة من طرف السكان من أجل بناء المساكن وهذا بشهادة بعض الشيوخ الذين مازالوا على قيد الحياة

تم توثيق في الناحية الشرقية للقلعة98 ناقشة جنائزية والعديد من أماكن هيأت لوضع الناقشات أي موائد جنائزية ولها إطار لوضع أو إسناد الناقشة.الناقشات منحوتة في الصخر أحيانا منفردة وأحيانا متلاصقة مع بعضها البعض في كتلة واحدة، وأحيانا تشترك النصب في الحد الفاصل[11] بينها أي حد فاصل يكون اثنان أو ثلاثة تكون نصب ككتلة واحدة مما تشكل صف من النصب مما يبطل فرضية قلع وبيع الناقشات.

أما توزيع الأنصاب في الموقع فهو على شكل صفوف شبه مستقيمة، والصفوف متتاليةوتبعد عن بعضها البعض بحوالي 2 متر. أما نوعية الحجر الذي نحتت منه فهو الحجر الجيري الأزرقهذا في الجهةالشرقية أما في الجهة الجنوبية يوجد صف واحد. يرجع أن الطقوس التي تقام على الهواء كل واحد أمام النصب وتاركا المجال لمن يريد العبور دون زحمة لان المسافة في الجهة الشرقية واسعة نوعا ما.

[10]Gsell /st Histoire Ancienne de l’Afrique du nord T -6 LES royaumes indigènes vie matérielles intellectuelle et morale Paris 1927 P 119 _120

[11]Gauchet, Les ruines romaines de Kalaa(Bulletin de la société de géographieet D archéologies de province d'Oran 1903 PP132_134.

ماهية الأثر:

يرجح أن يكون معبد مقام على الهواء الطلق وخارج أسوار المدينة وربما كانت تقام الشعائر والطقوس الدينية وعلى ضوء هذه النصب التي تحتوي على موائد يمكن أن نقول أن الذبائح كانت تقام على شرف الأموات وربما أن هذه النصب كانت تؤجر لمن يريد أن يقدم قرابين أو يقوم بنذر أما عدم وجود كتابة على النصب يرجح أن تكون قد كتبت بالطلاء ومع مرور الزمن تلاشت أو أن الطقوس كانت لا تستدعي كتابة الأسماء والنذر ولدينا العديد من الناقشات الجنائزية في المتحف العمومي بسطيف العديد من النصب والناقشات الجنائزية نجد أن الناحت قام بكل شيء من تصميم للناقشة وجعل لها سجل للكتابة لكن لم تسجل هذه الكتابة[12] . كما وجدت ناقشات أخرى في كل من قرطاج والحفرة بقسنطينة ولم يكتب عليها.ولعل النصب الجنوبية تشترك مع الموجودة في الجهة الشرقية أنها هي كذلك تقع خارج المدينة وخارج الأسوار غيرها انها قليلة العدد وفي إحداها تحمل صورة شخص وهو الوحيد المجسد من117نصب، كما أن معظم هذه النصب لها موائد جنائزية هذهالأخيرة تحتوي على صحون منها ماتحتوي ثلاثة صحون والأخرى صحنين وغالبا ما نجد الناقشة تحتوي على صحن واحد، في هذه الصحون تختلف من واحدة إلى أخريفي القطر والعمق ويتراوح قطرها بين 07 سم وعمق 04 سم، ربما كانت تجمع فيها الأغذية أو القيام بالطقوس لإكرام الأموات على شرفهم.

الخلاصة:

على ضوء هذه المعطيات تم توثيق النصب وجردها وتمت عملية الرفع الأثري وأخذ جميع المقاسات وتوثيقها بالصوروإعطائها أرقامومقارنتها مع بعضها البعض.

أما عملية التاريخ فتؤرخ شموليا مع القلعة التي تبدأ من القرن الثاني قبل الميلاد إلى غاية القرن الثالث عشر الميلادي وهذا راجع إلى ما عثر عليه فوق سطح الأرض من فخاريات ومسكوكات، ونظرا إلى الرموز التي وجدت على هذه الشواهد يرجح أن تكون للقرن الأول قبل الميلاد.

[12]P.A. Février -A.Gaspary : Nécropole Orientale de Sétif ,BBA.T.2 1967 PP 52- 93

النقشات المتلاصقة تحمل رموز دينية وفلكية

.

منظر عام للقلعة

فتحة مركز الحراسة

أحد مخارج القلعة

مركز الحراسة من الداخل

النصب الوحيد الذي يحمل نحت بشري

أماكن مخصصة لوضع النصب

ناقشة ذات مائدة جنائزية

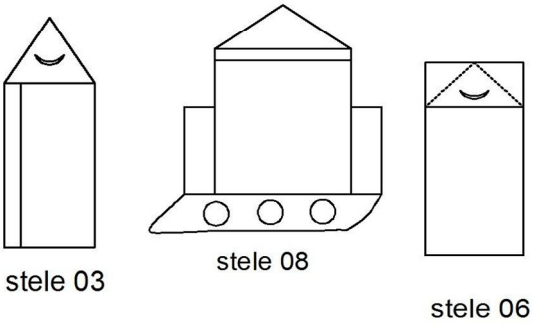

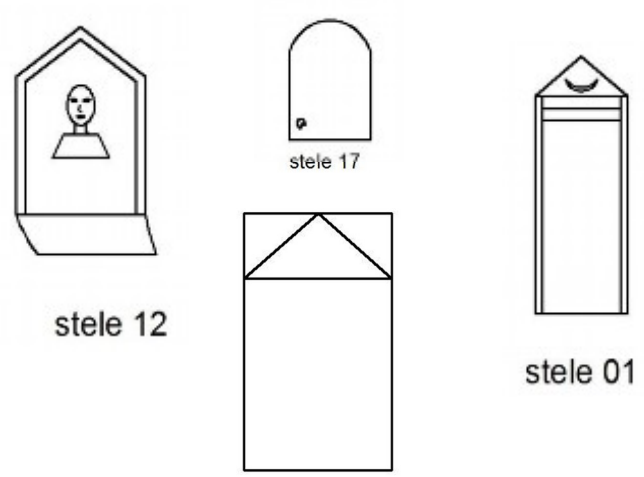

الرفع الأثري لبعض المعماري للناقشات

كما تم توثيق مجموعة الأنصاب الجنائزية بالصور مع وضع السلم وكذلك تمت عملية الرفع لكل هذه النقشات مما سهل علينا عملية الدراسة خاصة التصنيف وعملية التنميطالتي سوف تفتح لنا أبواب هامة لمعرفة كنه هذه الأنصاب والطقوس التي جرت في تلك الفترة.